لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

(في اول آب (اغسطس) سنة ١٩٣٠)

دار المسناة

بقاياها الايوان الذي بالقلعة (*)

Identification de l'Ivân de la caserne d'artillerie, à Baghdad.

كان الكاتب المحقق مصطفى جواد قد قال في هذه المجلة (٧ [١٩٢٩]: ٤٨٨) ما يلي : واذ كانت قصور الخليفة بين شريعة المربعة او نحوها وشريعة المصبغة اي على ماادعى الصديق...(يعنيني بكلامه) فكيف يتفق كلامه وقول ابن جبير ص ٢٠٦ عن الناصر لدين الله : « وقد انحدر عنها صاعداً في الزورق الى قصره باعلى الجانب الشرقي على الشط » فهل كان اعلى الجانب الشرقي المصبغة ؟» انتهى كلام صاحب المقالة الذي يستشف من استفهامه انه انكر علي تعيين موضع قصور الخليفة . وكان قد سبق وقال عني في الص ٤٨٧ مايأتي : «وهناك اضطراب ظاهر في قوله [يعنيني] : « يحتمل ان تكون قصور الخليفة فوق دار ابن الجوزي او تحتها» ثم قوله [كذلك يعنيني] ولعل الارجح ان تكون تلك القصور

*) للمهندس الفرنسي « . فيوله مقالة في مجلة الآثار التي تنشر في باريس وصف فيها بقايا هذه الدار وسماها « بقايا الايوان الذي بالقلعة » وكذلك فعل المسيو لويس ملسنيون في كتابه « بعثة في العراق ٢ : ٨٤ والدكتور ارنست هرتسفلد في كتابه عن بغداد ص ١٧٠

فوق الدار » انتهى ما نقله ورأى ان (او) الشكية زائدة فنقدني عليها ولم اكن اذ ذاك في بغداد لتكون الاجزاء السابقة تحت يدي لاجيبه على كلامه .

وبعد ذلك باشهر كتب ايضاً في هذه المجلة في الص٣٤٣ من هذه السنة مقالة بعنوان: « القصر الذي بالقلعة » نفى فيها ان تكون الاطلال قصر المأمون واخيراً دبج قلمه مقالة اخرى عنوانها: « قصر الناصر لدين الله العباسي بالقلعة » نشرها في جريدة العراق (البغدادية) في عددها المرقم ٣٠٩٤ والمؤرخ في ١٠ حزيران ١٩٣٠ اورد فيها من الادلة والبراهين ما ينفي نسبة القصر الذي بقاياه بالقلعة الى المأمون. وهو محق في ذلك .

واذ كان لنقده اياي ولسؤاله الذي وجهه الي صلة بالقصر الذي كتب عنه المقالتين عن لي ان اكتب شيئاً عن ذلك وافصح عن بقايا القصر المنوه به — وهي الايوان الذي بقاياه بالقلعة — حتى يجيء اليوم الذي نعرف فيه باني القصر وسنة تشييده واسمه وهل كان له اسم غير الذي سنعرفه في السطور التالية .

وليسمح لي الكاتب الاديب المجامل ان اقول له اني لا ارى منافاة في ما حققته عن موضع قصور الخليفة وعلى اصطلاح آخر دور الخليفة وعلى غيرة من الاصطلاحات دار الخلافة ما استوجب الاستفهام . وهل من البعيد ان يكون للناصر قصر غير قصوره التي في دار الخلافة ؟ ولا شك ان الجواب هو : كلا ان ذلك ليس من البعيد .

وبعد ان اقر الكاتب الفاضل في استفهامه باني قلت ان قصور الخليفة بين شريعة المربعة او نحوها وشريعة المصبغة فلا ارى ان له وجهاً في مناقشتي في « او » الشكية اذ ان من يراجع مقالتي « قبر ابن الجوزي » و« قصور الخليفة » (هذه المجلة ٧ : ٣٧٢) التي نقل منها للنقد يرى ان ما قلته فيها هو ما استخرجته من رحلة ابن جبير قبل ان استرسل في البحث الذي عينت في نتيجته موضع قصور الخليفة في مقالتي المذكورة كما كنت قد عينت قبل ذلك موضع حريم دار الخلافة وفيه دار الخلافة في هذه المجلة (٥ : ٤٤٩) وفضلا عن اقرار الفاضل الاديب في استفهامه بأني كنت عينت موضع قصور الخليفة فانه قد قال اخيرا ما يأتي في جريدة العراق في عددها المذكور آنفاً

« نقل صديقنا ... يعقوب نعوم سركيس في المجلد الخامس من مجلة لغة العرب ص ٤٥٣ ان المدرسة المستنصرية « اي الكمرك اليوم » مما يلي شمالي دار الخلافة العباسية ومصدره ج ٣ ص ١٧٠ من تاريخ ابي الفداء...» ثم قال: « واذ علمت ان قصر المأمون في دار الخلافة (وكانوا قد جددوه) وان دار الخلافة من قهوة المصبغة الى جامع السيد سلطان علي وشريعة المربعة اليوم ادركت كل الادراك غلط من ينسب قصر القلعة ــ المتهدم اكثره اليوم ــ الى المأمون » اه.

فيظهر مما تقدم باقرار الكاتب بأني كنت على حق في ماقلته عن موضع قصور الخليفة فلا تناقض بين كلامي وكلام ابن جبير لتستوجب الحال الاستفهام. وكان حكيي عن قصور الخليفة التي في حريم دار الخلافة وحكي صاحب الرحلة عن قصر للخليفة غير قصوره التي في الحريم.

الايوان

اما القصر الذي حكى عنه ابن جبير فبقاياه الايوان وغيره مما في القلعة(١) وكلها بقايا قصر نسبه كاتب المقالتين الى الخليفة واني لمعتقد اعتقاده انها بقايا القصر الذي عناه ابن جبير وهو الذي سئلت بمناسبته ان اوفق بين كلامي وكلام ابن جبير ولم يكن ماقلته مخالفا لابن جبير على ما بان لك في ما تقدم. وما هذا القصر إلا الذي جاء الكلام عليه في كتاب الحوادث الجامعة باسم « دار المسناة » اذ ان موقع الايوان الماثل اليوم يوافق موضع القصر الذي ذكره صاحب الرحلة اما باني القصر فقد يكون الناصر وقد يكون غيره قبله اذ ليس لدي ما ينبئني بانه من بنائه. وهذا ماوجدته عن القصر في كتاب الحوادث :

١) هي القلعة التي كان يسميها الاتراك في التاريخ « ايچ قلعه » (اي القلعة الداخلية) وذلك لموقعها في داخل سور المدينة وكانت تسمى اخيرا بال « طوبخانه » (اي موضع المدفع او المدافع) وهي قديمة اذ انك تجد حدودها مرسومة في صورة لبغداد في المخطوط التركي المسمى « بيان منازل سفر عراقين سلطان سليمان خان » لمؤلفه الذي قال عن نفسه في كتابه سلطان سليمان قانوني بندكلندن نصوح السلاح للطراقي ٩٤٤ » (١٥٢٧ م) وهو مخطوط وجد في خزانة يلديز للسلطان عبد الحميد وصفته مجلة Syria واقتبست بعض صوره ثم نشر على جدة في السنة التي نشرته وهي سنة ١٩٢٨ وعنوانه بالفرنسية :

Les Etapes d'une Campagne dans les deux Irak ... publ par Albert Gabriel. Paris, 1928

« (سنة ٦٣٥ هـ ـ ١٢٣٧ م) ثم تقدم بعمارة سور بغداد وقسم بين ارباب الدولة فسلم الى نواب ديوان الابنية منه قطعة مما يلي دار المسناة ... »

« وفيهـا (اي في سنة ٦٤١ هـ ـ ١٢٤٣ م) زادت دجلة زيادة مفرطة غرقت مواضع كثيرة ونبع الماء في المدرسة النظامية ودخل بيوتهـا وكذلك ماجاورها وخرب محلة كان استجدها الغرباء من الجند بظاهر سوق السلطان وراء جامع المدينة وانتقل اهلها الى وراء السكر وصليت الجمعة على طرف الخندق مما يلي دار المسناة وانزعج الناس ... »

« (سنة ٦٤٦ هـ ـ ١٢٤٨ م) ... ثم زادت (دجلة) في ذي الحجة زيادة مفرطة اعظم من الاولى فانفتحت في القورج فتحة وصاحب الديوان فخر الدين ابن الدامغاني هناك فنجـا بنفسه مسرعاً ودخل البلد وانفتحت اخرى الى جانب دار المسناة واحاط الماء ببغداد ... »

« في هذه السنة (اي سنة ٦٨٠ هـ ـ ١٢٨١ م) ... وقبض السلطان على علاء الدين صـاحب الديوان واصحابه وكتابه واتباعه ... ودوشخ (١) والقي تحت دار المسناة التي باعلى بغداد على شاطىء دجلة ... »

« (سنة ٦٩٦ هـ ـ ١٢٩٦ م) ثم امر (السلطـان) بقتل مظفر الدين علي ابن علاء الدين صاحب الديوان فنفذ الى بغداد من قبض عليه واعتقله اياماً ثم قتل ودفن في دار المسناة التي باعلى بغداد وعملت الدار رباطاً ثم نقل منها ودفن عند والدته في الرباط المجاور للعصمتية . » ا ه

وبعد تعريف الحوادث الجامعة بموضع دار المسناة وهو ما ينطبق على موضع القصر الذي رأى ابن جبير الخليفة الناصر لدين الله صاعداً اليه وكذلك ما ينطبق على موضع الايوان الذى بالقلعة لم يبق شك في ان هـذا الايوان هو اثر باق من دار المسناة لكننا لا نعرف بانيها وسنة تشييدها وهل كان لها اسم غير هذا .

١) بالمجهول وقد اشتقوا الفعل من كلمة « دوشاخة » الفارسية اي «شاختين» اي فرعين وهي آلة ونوع من التعذيب وصفهما تيفنو Jean de Thévenot المتوفى في سنة ١٦٦٧ في رحلته المطبوعة طبعة ثالثة في امستردام في سنة ١٧٢٧ (٣ : ٣٦٢) مع نشره صورة يمثل فيها التعذيب بالدوشاخة . وكان هذا التعذيب معروفا في ايران اذ ذاك على ما نقله .

ولعل كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١) ـ ولا سيما مجلده الاخير ـ يميط اللثام عما جهلناه فحقيق بالباحث ان يرجع اليه منقباً ومدققاً .

بغداد في ١٣ حزيران يعقوب نعوم سركيس

(لغة العرب) اشار حضرة المحقق يعقوب افندي نعوم سركيس الى مقالة المهندس الفرنسي ٥٠. فيوله ولما كانت نادرة الوجود . ولا يعرفها اغلب القراء من ابناء لغتنا ننقلها اليهم اتماما للفائدة ولكي يقف عليها اصحاب الفن فيتعلموا وصف مثل هذه الابنية القديمة .

وصف ايوان القلعة

قال المسيو ه . ڤيوله H. Viollet وكان مهندساً في بغداد في مجلة العريقيات في سنة ١٩١٣ ما هذا نقله في لغتنا : « جميع ابنية ذاك العصر (في القرن الثالث عشر للميلاد او المائة السادسة والسابعة للهجرة) بنيت على مبادئ واحدة وبمواد واحدة ويجوز لنا ان نقول : ان طراز اتخاذ هذه المعدات وحسن الاشتغال بها هما اللذان يكيفان فن البناء ويطبعانه بطابع خاص .

ان ابنية المائة الثالثة عشرة للميلاد متقومة من طاباق صنع احسن صنع وانتفع استاذ البناء احسن انتفاع بتلك المواد التي لا تفتني من جوع في حد نفسها ويصعب ان يزين بها كما يزين بالحجر . وقد اتخذ قطعاً من الصلصال المشوي افرغها في قوالب رسمها في الاول قبل شيها فاذا اجتمع بعضها الى بعض تقوم منها تزويق عجيب بديع ليس فيه شيء من ذلك الجمود الذي لا يرى فيه سوى

ذكر جرجي زيدان (٣ : ٨٣) ان وفاته كانت في سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) وهو الواقع الصحيح ـ وانه طبع من كتابه مرآة الزمان مجلد في الهند على الحجر في سنة ١٩٠٧ وقال ان في المكتبة الخديوية (اذ ذاك) الجزء السابع عشر منه وانه يحتوي على حوادث ١٤ سنة من سنة ٦٧٢ الى ٦٨٢ قلت : لم اطلع على خبر طبعة المجلد المذكور . ويبين لي ان جرجي زيدان قد غلط اذ ان المجلد المطبوع في تلك السنة مطبوع في شيكاغو (اميركة) (راجع حاشيتي في هذه المجلة ٥ : ٢١٨) وكانت طبعته بالتصوير الشمسي على ما في احدى قوائم الكتبي لوزاك في لندن لسنة ١٩٢٩ وكذلك ذكره معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس ولم يذكر طبعة الهند مما يبين صحة رأيي . واخيرا اخبرني كوتنر في باريس احد كتبيي المستشرقين ان عدد نسخ المجلد المطبوع مائة فقط . وان قيمة النسخة كانت يوم نشره اربعين دولارا اميركيا (ثمانية باونات) وان طبعته نفدت وهو نادر جدا اما المجلد الذي ذكره جرجي زيدان وجوده في المكتبة الخديوية فلا شك انه ليس لسبط ابن الجوزي وقد كان توفي في سنة ٦٥٤ فهذا المجلد تتمة للكتاب المذكور او ذيل على ذيل له .

الخطوط المستقيمة الخاصة بالآجر . وقد اظهر التحقيق الفني لتلك الافكار المتولدة في صاحبها شيئاً في منتهى اللطافة والدقة كما يشاهد ذلك في الصور التي نقلناها في الاصل وزينا بها مقالنا [وهنا طبع ناشر المقالة سبعة رسوم اخذها عن ايوان القلعة ورسوماً اخرى اخذها عن المدرسة المستنصرية] .

ففي الصورة الاولى قسم من عقد الايوان في قلعة المدفعية وهو ايوان قديم والاثر الوحيد الباقي من قصر بديع لاحد الخلفاء والان تراه غارقاً في ابنية القلعة وله ميزة خاصة به . وهذه القطعة تبين جلياً اسلوب تحقيق فكرة البناء في ذلك العهد ويوقفنا على مبدإ التزويق في ذيالك الحين . وكل ذرو من مجمل البناء هو مكعب من مشوي الصاصال ومفرغ في قالب خاص به . وهو يفارق جاره بنوع عام بآجرة قليلة السمك موضوعة في جانبها .

وجميع هذه القطع المتجاورة الوضع تذكرك لعبة السرنج Puzzle اذ تتجه جميعها وجهة مدبرة جارية على خطوط تحقق فكرة الصانع الاستاذ فاذا تمت بدا لك رسم بديع في مجمله ويهون عليك حينئذ وجود الخطوط الهندسية فيه ...» .

والى اليوم ترى في بغداد « اسطوات » (اساتذة في البناء) يدفع واحدهم الى الآخر خلفه نماذج من الاعيب الآجر لا يصعب عليهم اتمامها . وليس من صاحب منزل يبني شيئاً في «دار الخلفاء» إلّا ويزين اعلى وجه الباب بتلك التزاويق تزاويق الاجر بيد أنها غير مصبوبة صباً في قوالب لانهم اضاعوا طريقة الاقدمين ولذا تراها منحوتة نحتاً بموجب ما يراد رسمه وليس فيها تزاويق .

وهذه التزيينات اذا أحكم وضعها تبدي لرائيها اقصى الغاية من وضع التزويق وتتخذ لتجميل العقود والسقوف وأعالي الابواب وما بين الشبابيك او الكوى وعمد الحيطان فحينئذ يخيل الى الرائي انه يشاهد في تلك المواطن طنافس او زلالي (زوالي) او تخاريم علقت عليها .

وتتخذ ايضاً قطع ناتئة وغائرة جارية على تلك الاقانين وقد وضعت وضعاً يعلي لك كعب تلك التماريج والتلاوي تعاريج الخطوط البنائية وتطوف تطاريز حول العقود عند اسافل العمد من جهة وفي اعاليها من جهة اخرى فتظهر متوجة

احسن تتويج .

بل ترى أزيد من هذا ، ترى عربة الحيطان نفسها مزينة تزييناً بسيطاً وهذه البساطة تفعل في نفسك مفاعيل تبعث فيها السعادة والانس . ترى مربعات من الاجر مصبوبة فيها النقوش صباً يتخللها طاباق عادي فتظهر لك كأن هناك رقعاً من الدمة (الضامة) او الشطرنج .

وعلى اعراف هذه الحيطان تطرد اطراد التخاريم رقم تكللها تكليلا زاهياً وتنطق تلك الحجارة الصامتة لانها زينتها الزاهرة .

ومنذ صدر الاسلام تجلت الحروف الكوفية تجلياً باهراً ، كان لها في الزينة المقام الاعلى . وهنا يحق لنا ان نتأسف على ان اساتذتنا في القرون الوسطى تركوا هذه الطريقة . طريقة التزيين والتزويق في الريازة ، بعد ان عالجوها معالجة تخوفوا فيها ولو ساروا في طريقهم سيراً حثيثاً لانتفعوا بها انتفاعاً عجيباً .

[وهنا تكلم الكاتب الفرنسي عن المدرسة المستصرية ثم انتقل الى الكلام على ما في قلعة الميدان من البناء فقال] : والصورة ١١ [وقد اتقن رسمها حتى بانت جميع محاسنها] تمثل عقد الايوان المشرف على فناء الدار من جهة الشرق فينشىء لك فكرة ماهي عليه من الزينة .

ولكي نبين كل التبيين هذا الجنس من البناء نصور للقارئ بعض تصاوير الابنية المشيدة في عهد المستنصرية لتتجلى لك درجة الكمال التي بلغ اليها هذا الفن المكين والدقيق الصنع معاً .

أرأيت شيئاً في الريازة أبهى من ذلك التزويق الذي يرى على العمد داخل البناء وهو المصور في الشكل ١٢ ؟ فان هذا التزويق الحافل بالغنى والمحصور بين اطارين هندسيين هو توسمت لاغبار عليه والى مؤازاة هذا المزدوج (١) عولج الاطار الذي يحول دون التزيين الجليل الذي في الشكل الاول معالجة غير مايرى في اخيه . وقد عني راسمه عناية عظيمة ليظهر ماهناك من المقابلات والمضادات والمخالفات . انك ترى بياضاً بقيت فيه خطوط البناء ظاهرة وقد خفف ما فيها

١) المزدوج Doubleau في فن الريازة مردي ثخين تقوم عليه عوارض مسقف او مخشب Plancher

من اليبوسة بآجر مطبوع وضع بهيئة متعارضة .

وتزيين البناء وخطوطه تتألف تألفاً صميماً هي وهيئة أعالي الباب اذ تتواءم كلها بنوع بديع دقيق وكل ذلك مما يعطف النظر اليه . والجرصونات Consoles التي تقوم عليها منظرة (بلكون) « خان اورتمه » في بغداد تبدو ثقيلة قليلا فهي لم تخفف بهذه الخواص التي ترى في هذا التزيين ، خواص تلطف ما في عري الحيطان من الخشونة وتظهر اهم خطوط الدوائر .

لا شك في ان اتخاذ الآجر المطبوعة فيه نقوش كان في بدء الامر لتزيين داخل الابنية ومن يراها ويرى ابواب الخشب المنقوشة نقشاً بديعاً في ديار مصر يعجب من المشابهة التي بينها وبين هذه الابواب .

فهذه النقوش الخشبية تقسم اقسام الآجر الذي نتكلم عنه اي يرى فيها المربع والكثير الزوايا والنجوم والاشكال العديدة الجوانب ويفرق مابينها حواش مزينة بغصون وورق وتتحد منضمة بعضها الى بعض بخطوط متقنة الصنع .

وان لم ينعم الرائي نظره في المواد التي يشاهدها لا يمكن ان يحكم بين الطريقتين اللتين اتخذتا ، اذ الظواهر تبدو واحدة في ما هو خشب وفي ما هو آجر . قابل ذلك بما يرى في صدر ايوان قلعة بغداد تر العجب .

فما اصل هذا الفن الخصوصي الذي انتشر بسرعة البرق في اول ظهوره ؟ ويرى من آثاره في بلاد العراق كلها ، من ذلك منارة سوق الغزل وخان اورتمة وقبر الست زبيدة وايوان قلعة الميدان الى غيرها وهذه كلها في بغداد . وفي الشمال في خان خرنينة (١) وقبر لولو في الموصل وفي الجنوب منارة الكفل وباب جامع الكوفة الاكبر الى غيرها ...

والظاهر ان في بدء المائة الثالثة عشرة للميلاد ظهر لاول مرة طرز هذا البناء في العراق . وهو يشبه كثيراً طرز الابنية الايرانية في عهد السلاجقة . إلّا ان الخاص بالابنية القائمة على ضفف الرافدين في ذلك العصر لم يكن للون منزلة في التزيين فالمعمار لم يحاول في ما بناه سوى الاعيب الظل والنور ليس إلّا .

١) وجاءت في الاصل المطبوع خنينة وهو غلط.

ان بياضاً عظيما يطيف بما هو رمادي ناشيء من الزينة المنبسطة وهي كل زينة تلك المباني .

فهناك تتلاعب بكل طيبة خاطر الغصون والازاهير ثم تتفتق تلك الغصون والازاهير فينشأ منها منعرجات جديدة تتوالى على الدوام وتتفشى طالما ننظر اليها بنوع لم تنتظره ولا يمكنك ان تميز بعضها عن بعض إلّا بعناية عظيمة وانتباه لا يعرف الملل .

وهذه الآثار تستحق ان تدرس درساً صادقاً وبكل تيقظ . فاذا عرفت عرف معها بعض مزايا ذكرت في التزاويق المتخذة من السجوق Stue في القرن العاشر والحادي عشر . وعرف معها ايضاً التزيين العربي الحقيقي مع جميع حدوده المشتهر بخطوطه المتلابسة ذلك التزيين المعروف بالمتشابك Entrelacs انتهى كلام المهندس الفرنسي .

ونقول في الختام : ان احد الادباء كتب مقالة عريضة في جريدة «العراق» وقعت في عدة اعداد منها راجع مثلا العدد الـ ٣٠٩٩ الصادر في ١٦ حزيران (يونية من هذه السنة ١٩٣٠) بعنوان : « ليس قصر القلعة قصر الناصر لدين الله ولا قصر المأمون العباسيين ، بل قصر ام حبيب العباسية» (؟ كذا) وفي العدد ٣١٠٤ الصادر في ٢١ حزيران ، وفي العدد ٣١٠٥ الصادر في ٢٣ حزيران والعدد ٣١٠٩ المنشور في ٢٧ حزيران والعدد ٣١١٠ البارز في ٢٨ منه الى غيرها . واذا ماوقف عليها اصغر التلامذة يتحقق للحال ان لاقيمة لها البتة من اي وجه كان . اذ ليس فيها رائحة تاريخ ولا وقوف اصاحبهـا على محلات بغـداد ولا ادرك مواطنها ولا رسومها وهو لايخالف الغير في كل ما خطته يداه إلّا ليقال ان فلانا كتب كذا وكذا وانه من المخالفين .

ونزيد على ما تقدم ان الاستاذ مصطفى افندي جواد متفق كل الاتفاق مع المحقق يعقوب افندي نعوم سركيس على ان هذه البقايا هي اطلال القصر الذي كان يتردد اليه الخليفة الناصر لدين الله فكشف يعقوب افندي سركيس عن اسمه اي «دار المسناة» فجاءنا بشيء مبتكر قائم على ادلة راهنة مكينة تاريخية لم يقف عليها من سبقه من محققي ابناء العرب والغرب . ولهذا من خالف رأي هذين المحققين فقد خالف الحق وانكر الشمس في رائعة النهار .